

مضامين الحكاية الشعبية في الجزائر

كهر ط.د. سومية أمزيان

إشراف: أ.د. تيجاني الزاوي

جامعة أحمد بن بلة 1 وهران

تعد الحكاية الشعبية في الجزائر لحمّة تاريخية مغتلفة من عبق ماض عريق
خطته أحداث أسلافنا في سجلات فائضة المضامين الاجتماعية والسياسية
والعقائدية الدينية والنفسية، عبر مغامرات يخوضها البطل، وشخصيات خيرة،
وأخرى شريرة، إذ اتسمت خواتيمها بنهايات اكتنفتها بوتقة من العبر الناصحة،
والواعظة والمحدرة. ليتعظ المتلقي ويعتبر من تجارب السلف.
الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية، المضامين، الشخصيات البطل.



The Folk tale in Algeria is considered as a historic and exotic poetry .It is inherited from the early ages that are characterized by a wide range of our antecedents events founded in social, political, ideological, religious and psychological content recordings .It entails adventures played by the by the hero and other agreeable and evil characters. Its conclusions are featured by lessons of advice and warnings to the recipient who will as such learn from his/ her antecedents.

Key words

The Folk tales, contents, characters, hero.

ورث كل شعب عن أسلافه ثروة تراثية حافلة بالتجارب والخبرات انتقلت من جيل لآخر عبر تواتر الأزمنة، منها ما اندثر نتيجة التغيرات الأنثروبولوجية، ومنها ما بقي راسخا بالذاكرة الشعبية، فالتراث مادة حيّة صادرة عن الشعب يعبر من خلالها عن مشاعره، وعاداته، وتقاليده، وأعرافه، كما أنه ليس محصّلة عصر واحد فحسب، وإنما هو نانج عن مخلفات عصور قد خلت، والسّر في استمراره استحواذه على مجموعة من الجماليات التي تعمل على بقاءه حيّا ومتداولًا، وهذا ما اتّسم به جنس الحكاية الشعبية الجزائرية الذي لا يزال يتخلل أحاديثنا اليومية، وتستشهد به الروايات لما يشتمل عليه من مضامين عاكسة لتجارب أجدادنا ومحافظة على هويتنا .

فما ماهية مضامين الحكايات الشعبية في الجزائر؟

جسّدت الحكاية الشعبية طريقة تفكير كل أمة عبر تناقل المضامين من جيل لآخر، والحكاية الشعبية. واحدة من أعمدة التراث الشعبي الجزائري وشكل من أشكال التعبير الشعبي. وقد استطاعت أن تؤرّخ للأمم نمطية تفكيرهم وأساليب عيشهم، عن طريق تناقلها من الجدّة للأحفاد، وذيوخها في المقاهي، والأسواق ومختلف التجمعات عن طريق الحكواتي أو الراوي، خاصّة أنها تتسم بالشفوية التي أكسبتها طابع المرونة وسرعة الانتقال والاستمرارية، وهذا ما يزيد المتلقي إقناعا من خلال استمالته عبر ملامح الوجه والإيماءات، والأساليب الجاذبة التي يقوم بها الراوي. بالإضافة إلى الأحداث المعبرة عن آلام وأحلام الشعب، كما تصف مآل الطغاة وتعرض المصير الحتمي للأشرار هذا ما يجد فيه المستمع راحة واطمئنان. فالحكاية الشعبية ليست ملكا لمجموعة خاصة من البشر وليست منسوبة لشخص معين ، وإنما هي شفوية مجهولة المؤلف .

أ - مفهوم الحكاية الشعبية اللغوي والاصطلاحي:

"يعني فعل حَكَى ... حكاية الخبر أي وصفه. و حكى عنه الكلام: نقله وحكى حكاية فلانا: شابهه وأتى مثله وحاكى محاكاة أي شابهه (المنجد مادة حكى) فحكى أو حاكى كلاهما تعني المشابهة والقصص مشابهة ومحاكاة لأفعال سابقة"¹.

كما عُرِّفت اصطلاحاً بأنها: "حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة وهي تتطور مع العصور وتتداول شفاهاً، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية الصرف أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ"².

وعُرِّفت أيضاً "بأنها الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية عن جيل لآخر، أو هي خلق آخر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخصيات ومواقع تاريخية"³.

ب - خصوصيات الحكاية الشعبية:

تشتمل الحكاية الشعبية للتعبير عن مضامينها على مجموعة من الخصوصيات المتمثلة في الأحداث، الشخصيات، الزمن، المكان، والحبكة، و العقدة ثم الحل، حيث تعد الشخصيات المحرك الأساسي للأحداث منها الشخصيات الخيرة، والشخصيات الشريرة. وغالباً ما تبدأ مضامينها باللاتوازن وصولاً إلى استخلاص مغزى عميق في النهاية يعبر عن فلسفة الحياة "فالحكاية الشعبية تحكم بناءها من أجل الوصول إلى فلسفة عميقة في الحياة وهذه الفلسفة تتميز بالغموض والوضوح معاً،

¹ - ياسين النصير، المساحة المختفية، المركز الثقافي العربي، ط: 1، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان ، 1995، ص 33

² - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار المعارف، ط: 3، القاهرة، د ت، ص: 133.134، نقلاً عن: 63

s.cit. Andre jolles op

³ - م ن، ص: 133

لأنها تعد صدى لتجاربنا التي نعيشها وهي تلك التجارب التي تتميز بالتعقيد والغرابة¹

فالشخصيات الشريرة هي التي تطغى بقوتها، وجبروتها على أحداث الحكاية وتخلق العقبات في طريق البطل، والمثثلة في الغيلان، والوحوش، وزوجة الأب، كما قد يكون حيوانا مثل الطائر بأنواعه، الأسد، الذئب، الثعلب إلى غير هذا من الشخصيات التي تعرقل درب البطل للوصول إلى النهاية السعيدة، أما الشخصيات الخيرة: هي تلك الشخصيات التي تسعى لمساعدة البطل لبلوغه النهاية السعيدة

وشخصية البطل هي الشخصية الرئيسية التي تسعى إلى محاربة كل ما يعترض درب النهاية ويتحدى الغيلان، وكل الشخصيات الشريرة ساعيا إلى حل العقدة في مغامرة مليئة بالمفاجآت وصولا إلى النهاية التي غالبا ما تكون سعيدة، وهذه الشخصية الرئيسية هي التي " يعجب بها ويحلم الصغار، توجد في كل زمان ومكان بأشكالها المتعددة، هو نموذج للسلوك النمطي. البطل هو وسيلة وغاية في آن واحد فهو الشخصية الرئيسية ومحور الحكاية، تحدث له جميع المغامرات وهو لا يكون دائما ذكرا ولكن أحيانا أنثى"² كما قد يكون حيوانا مثل الطائر بأنواعه، الأسد، الذئب..

تبنى الحكاية الشعبية في البداية على إيقاع تفصيلي هادئ يعرف أشخاص الحكاية ويدرج صفاتهم وميزاتهم وغالبا ما تبدأ بعبارات افتتاحية تدل على عراقة الحكاية وقدمها مثل " في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان يا ما كان..." فالفعل الماضي "كان" دال على أن الحكاية قد جرت في زمن قد مضى " وليس الفعل الماضي إلا تاريخا شعبيا يستذكر من خلال حكاية أو حادثة الماضي بمعناه

¹ - نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، مكتبة غريب، دط، مصر، دت، ص، 210.

² - غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشعبية، دار نوبار للطباعة، ط: 1، القاهرة، 1997، ص: 61

الأشمل استمرار رغم قدمه فهو حاضر فيما نرويّه وإن كان معزولا ب " كان ياما كان"¹.

ثم تبدأ الأحداث بالتفاقم والتعقيد والتوتر المتمثل في المشاكل العويصة والعقبات التي تعترض سبيل البطل أثناء قيامه بمهمة ما، بغية إدراك هدفه وقد يكون البطل شابا يافعا، أو بطلا تاريخيا أو فتى أو طفلا صغيرا، كما قد يكون الحدث الذي تدور حوله الحكاية اجتماعيا، أو سياسيا، أو تاريخيا ، أو نفسيا.

مهما كانت طبيعة البطل وماهية الحدث، فالحكاية تصور صراعا بين الخير والشر، بين الأخلاق الحميدة والمعاملات السيئة بين الرذيلة والفضيلة، بين الحق والباطل، وغالبا ما تكون النهاية سعيدة ينتصر فيها الخير على الشر وعلى هذا الشكل تتعاقب وتتكامل الأحداث التي يهرب إليها الإنسان من عالم الواقع إلى عالم الخيال عبر طريقة سرد الراوي الذي ينبغي أن تتوفر فيه سمات تخوله لشد انتباه المتلقي.

مميزات الراوي:

لا بد من أن تكون للراوي موهبة تفرضه على مجتمع القصص، وهذه الموهبة تقتضي امتلاكه لحصيلة من القصص التي تحفظها قوة ذاكرته وتسمى بالملكة الروائية والمقصود منها " المقدرة الكامنة في عقل الفرد"².

إن هذه المقدرة تشمل هيئة الراوي، الأداء التمثيلي ومدى درايته بعلم اللهجات، وطبيعة أدائه الصوتي " فالصوت سر الحياة وإذا لم يكن هناك صوت فهناك صمت،

¹ - غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشعبية، م س، ص: 59

² - عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، (دراسة ميدانية) ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 34

وحياة الشعب حركة وصوت، والصوت هو وسيلة الاتصال المعرفي بين الأنا والآخر وكلما قويت الطاقة التي تصحب الصوت كانت فعالية الاستقبال¹.

ضروري أن يكون صوت الراوي جهوري وواضح بتلويناته المتغيرة بحسب مواقف الأحداث المروية وذلك للتأثير في المتلقي، لذا فعلى الراوي أن يمتلك براعة الأداء التمثيلي الذي يسهم بشكل كبير في إيصال رسالته الشفاهية وتصوير الأحداث للمتلقي وجعله يعيشها كأنها تجري أمامه، إذ يعتمد الراوي على قدرته بتقمص أدوار الشخصيات القصصية باستخدام القوة الحسية المتمثلة في حركة الجسم، وملامح الوجه، وحركات اليدين، والتنفس السريع أو الثقيل وكيفية الكلام والمبالغة لخلق الإثارة والمتعة، فالتضخيم والمبالغة في الأحداث يعكس مدى ذكاء وبراعة الراوي في قدرته على تصوير الغرائب وخلق التأثير والانفعال لمعايشة فحوى الحكاية

ج- ماهية مضامين الحكاية الشعبية

إن الحكاية الشعبية عالم من الأحداث والتجارب المختلفة التي عاشها الأسلاف مجسدة في مجموعة من الشخصيات بطريقة محبوكة، ومثيرة، منتقلة عبر الرواية الشفوية من جيل لآخر، حيث تحوي مجموعة من المضامين الثرية بالتربية، والمواعظ، والقيم السامية الهادفة لدحض الشر، ونشر الفطنة والوعي، خاصة وأن الجزائر مرت بمراحل زمنية صعبة كفترات الاحتلال التي مارس فيها المحتل الظلم، والطغيان، والتلفيق السياسي على الشعب الجزائري، إذ ترجم كل هذا تجارب كثيرة بمضامين الحكايات التي تحكي خبرات الماضي من بينها الاجتماعية، السياسية، العقائدية والعاطفية، الأخلاقية، والدينية، والنفسية.

¹ - تيجاني الزاوي، بناء الحكاية الشعبية في الجزائر (رسالة دكتوراه الدولة)، وهران، 2007، 2008، ص: 287.

1- المضمون الاجتماعي:

يشتمل المضمون الاجتماعي على حمولة فكرية هادفة تجلّت في ظلم الملك المستبد الطاغى لرعيته، إضافة إلى الجهل، والحمق، ومواضيع عدة متعلقة بالمرأة عن تصرفاتها، وعن منزلتها في الحياة كوالدة، وأم، وزوجة أب، كالفتاة الجميلة التي تظلمها زوجة والدها وتقهرها وتبقى على هاته الحالة إلى أن يعجب بها الأمير ويتزوجها، فيخلصها من شر زوجة والدها، إضافة إلى حكايات السلطان، وحكايات الفقر، والغنى كحكاية "الفلّك يُدورُ يا بنتُ ما"، حيث تضمنت أحداثها التصرف المتعالي الذي كانت تمارسه الأخت الغنية على الأخت الفقيرة، إذ كانت تقصد الأخت الفقيرة قصر أختها الغنية لتسألها المساعدة، فتطلب منها الأخت الغنية أن ترقص لها مقابل "قلية قمح" إلى أن وبعد مرور الزمن انقلبت الموازين، حيث أضحت الأخت الغنية شديدة الفقر ومتسولة، في حين أصبحت الأخت التي كانت فقيرة ثرية، لكنها لم تعامل أختها بتعال وإنما كانت تساعد على الرغم مما فعلت بها.

2- المضمون السياسي:

قد مس المضمون السياسي الجانب النضالي الذي كابدته الجزائر ضد أعدائها، فتعرض إلى الحكايات البطولية، وإلى كيفية تحلّص الأبطال الذين تمثّلوا في المجاهدين من ظلم الاحتلال الغاشم، وإلى كيفية تخطيطهم للوصول إلى النصر، والحق كما يمثل " هذا النوع الأسمى في أحداثه وصياغته وبطولات أصحابه، ذلك أن هذا اللون بما يرويه عن صور البطولة، والشجاعة، والدفاع عن العرش أو الدوار أو القبيلة، يعدّ لونا أدبيا مكتملا يمكن أن يدخل الكثير منه في عالم الملاحم البطولية"¹.

¹ - محمد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري مع ملحق بنصوص مختارة قصص - حكايات - أحاجي - أمثال - نواذر شعبية، دار العلوم للنشر والتوزيع، ج: 1، 2013، عناية، ص: 85.

بالإضافة إلى حكايات الثورة التحريرية التي تسرد كيفية دفاع المجاهدين وتحملهم معاناة الحرب وهذا النوع من الحكايات يعتمد فيه الراوي إلى التقليل من "شأن العدو وتحقيره، وينعته بأوصاف الجبن. كما يركز فيه على المقابلة بين الكثرة المهزومة والقلة الهازمة كما في معارك ثورة 1954 التحريرية وقبلها معارك البطل الشيخ بوعمامة وفاطمة نسومر"¹ وطائفة كبيرة من الأبطال كيوغرطة، والأمير عبد القادر كانت تنسج من بطولات هؤلاء الأبطال أحداثا للحكايات الشعبية التي بثت في الشعب الوعي، والفتنة، حيث حشتهم للاقتداء بهم وفضحت لهم أساليب، وحيل العدو المتمثلة في الاتفاقيات، والوعود المغرصة، والهدن الكاذبة، والحكاية الموسومة بعنوان " النية والحيلة" عبّرت عن النجاح الدائم للنية مهما بالغت الحيلة في مكرها، وهذا حال المحتل الذي مهما أطل البقاء في الجزائر ومهما خطط وتحايل، إلا أنه في الأخير خرج منها مدحورا.

جسّدت هذه الحكاية الشعبية النية والحيلة كشخصين يتجولان في الغابة وعند حلول الليل نصحت الحيلة صديقتها النية أن تنام وسط الطريق وذلك لتدوسها سيارة، أما الحيلة فنامت في مكان آمن تحت شجرة على حافة الطريق، وبينما هما نائمتان مرت شاحنة منيرة لأضوائها فلمحت شيئا ما وسط الطريق فانزاحت عنه كي لا تدوسه متجهة ناحية الشجرة، فإذ بها تدوس الحيلة. وهذا ما عبّر عنه فحوى الحكاية السياسية.

3- المضمون الديني

أما المضمون الديني العقائدي نلمسه في حكايات الأولياء الصالحين، والإيمان ببركاتهم، وزيارة القبر، وحكايات الجان والأرواح الشريرة، والأعمال المنسوبة إلى قدراتهم الخارقة على تحدي الشرور، والظلم.

¹ - م ن، ص: 86.

حين يحس الفرد أنه عاجز أو مظلوم فيقصد درب هاته القبب، والأولياء الصالحين ظنا منه أنه سينال مراده، كأن تتأخر امرأة في الإنجاب فتزور مقام ولي متضرعة إليه آملة أن يحقق أمنيتها ببركاته وهذا النوع من " الحكايات التي ترتبط باعتقاد الإنسان الشعبي في الأولياء أو باعتقاده في الأرواح الشريرة، أو الخيرة التي تظهر له بصورة أخرى، وتمثل وظيفة هذا النوع من الحكايات في تأكيد المعتقد الشعبي والعمل على دوامه"¹.

إن الحكاية الموسومة بعنوان "الصدقة تُبَعِّدُ الْبَلَاءَ" عبرت عن قيمة دينية معلومة بديننا الحنيف، المتمثلة في مدى أهمية الصدقة التي بفضلها يحفظ الإنسان من أي شر أو مكروه وهذا ما تضمنته الحكاية الشعبية التي حكى عن الخطاب الذي نام بالمقبرة، حين عاد ليلا متأخرا وإذ به صوت ميتين يتكلمان فأخبر أحدهما الآخر أنه في الغد ستأتي امرأة لتدفن بجوارهما والسبب هو سقوطها من السلم وكانا يقصدان زوجة الخطاب، ذهل الخطاب مما سمع وفي الغد عندما عاد إلى منزله وجد زوجته تغسل الملابس، ثم حضّرت الغذاء وفي تلك الأثناء دق متسولا الباب، ففتحت له الباب وأمدته بكل نصيبها من الأكل وحين صعدت السلم لنشر غسيلها، فصعدت سالمة وهبطت كذلك، فراح زوجها لينام بالمقبرة مرة أخرى ليعرف سبب عدم موت زوجته فتحدثا الميتين وسأل أحدهما الآخر: أين هي المرأة التي قلت لي ستدفن اليوم؟ أجابه الميت الثاني: أنها لم تمت بفضل صدقة قامت بها حين أعطت المتسول نصيبها من الأكل فحفظها الله وأطال بعمرها، بهذا تميزت مضامين الحكايات الدينية الهادفة إلى زرع القيم العقائدية كالصدقة كما هو مبين في هذه الحكاية الشعبية.

¹ - نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، م س، ص: 200 .

4- المضمون النفسي:

أما المضمون النفسي تجلّى في التفريج عن النفس وذلك حين وجد المتلقي ما يحلم به بمضمون الحكاية، خاصة وأن الاحتلال الفرنسي شوّه نفسية الشعب الجزائري بالظلم، والقهر، والحرمان، والخوف، فكان يجد الشعب ضالته في الحكاية التي كانت تسد احتياجاته النفسية حين يعلو صوت الحق بمضمونها ويهزم الشر " فلا شك أن الخيال المغرق في تصوير الرفاهية ما هو إلا نتيجة طبيعة للحرمان الذي كانت تعانيه الطبقات الدنيا من الشعب إبان ظهور الحكاية، وهذا ما نستطيع أن ندعوه بأحلام اليقظة"¹.

فحين يمرض البطل أو تصيبه مكيدة من مكائد الشخصيات الشريرة، يُخلق في نفسية المتلقي التوتر، والقلق على سلامة البطل، وحين يقضي البطل على الشرير يفرح المتلقي ويؤثر الحدث بنفسيته.

كل مضامين الحكايات الشعبية سواء منها الاجتماعية، أو السياسية، أو النفسية، أو العقائدية، الدينية، مغترفة من أعماق تجارب أسلافنا، حيث أفصحت عن عفويتهم في تصرفاتهم، وهفواتهم، وأخطائهم، وجهلهم الذي دفعوا ضريته لنعم نحن بما نحياه اليوم من فطنة، ووعي. جراء اتعاظنا بهم .

وقد استنتجت من ماهية مضامين الحكاية الشعبية في الجزائر أن:

- ميزة الشفوية للحكاية الشعبية هي السر لاستمراريتها.
- خلق الإثارة والمتعة بمضمون الحكاية الشعبية لابد من راو محترف يجيد تقنيات الرواية لشد انتباه المتلقي.

¹ - برونو بتلهام، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، تر: طلال حرب ، دار المروج ، بيروت، 1985، ص: 11،10، نقلا عن: الحكايات الشعبية في اللاذقية سبق تقديمه، ص: 27، ص: 59.

- تعدد مضامين الحكاية الشعبية من إجتماعية، وسياسية، ودينية ونفسية يخلص إلى بوتقة من النصائح، والمواعظ والإرشادات جراء تجارب أسلافنا
- بُث الحكاية الشعبية في المتلقي الوعي واليقظة.
- سرد مضامين الحكايات الشعبية لآلام وأحلام الشعب.
- مضامين الحكاية تُنفس عن المتلقي وتمده بالراحة والاطمئنان وقت تسرح بخیاله بعيدا عن الواقع وحين تعاقب الشخصيات الشريرة.
- وجوب تلقين مضامين الحكايات الشعبية للطفل لتعريفه بتراثه وهويته.
- ضرورة بذل الجهود المكثفة للحفاظ على كيان الأدب الشعبي الجزائري وعلى مضامين الحكايات الشعبية وذلك بكثرة البحوث الميدانية وملازمة الشيوخ والأخذ عنهم.

المراجع:

- عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، (دراسة ميدانية) ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،
- غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشعبية، دار نوبار للطباعة ، ط: 1، القاهرة، 1997
- محمد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري مع ملحق بنصوص مختارة قصص- حكايات- أحاجي- أمثال- نوادر شعبية ، دار العلوم للنشر والتوزيع، ج: 1، 2013، عناية.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار المعارف، ط: 3، القاهرة، د ت.
- نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، مكتبة غريب، دط، مصر، دت، ص: 200 .
- ياسين النصير، المساحة المختفية، المركز الثقافي العربي ، ط: 1، الدار البيضاء المغرب ، بيروت لبنان ، 1995

المراجع المترجمة:

- برونو بتلهام، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، تر: طلال حرب ، دار المروج ، بيروت، 1985
- رسائل الماجستير والدكتوراه:
- تيجاني الزاوي، بناء الحكاية الشعبية في الجزائر (رسالة دكتوراه الدولة)، وهران، 2007، 2008.